

مقياس: النقد الأدبي العربي المعاصر

السنة الثانية ليسانس (دراسات أدبية)

المحاضرة الرابعة: المنهج الأسلوبي -2

### الظواهر الأسلوبية

تعد الأسلوبية منهجا نقديا، يبحث في الوسائل اللغوية التي تكسب الخطاب الأدبي خصائصه الفنية والجمالية، فهي بحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب، وتعد ظاهرتا الانزياح والمفارقة من أبرز الظواهر الأسلوبية في النص الأدبي.

أولا : ظاهرة الانزياح:

1-1- مفهوم الانزياح ونشأته:

الانزياح لغة مصدر للفعل "انزاح" أي ذهب وتباعد، وهو ترجمة للمصطلح الفرنسي Ecart بمعنى البعد، ولعل أقدم استعمال لكلمة "انزياح" ورد في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق في تعريب مصطلح Descent de la matrice بـ: انزياح الرحم.

أما الانزياح كمصطلح أسلوبي فهو في معناه العام " خروج عن المؤلف أو ما يقتضيه الظاهر، أو هو خروج عن المعيار لغرض قصد إليه المتكلم أو جاء عفوا الخاطر، لكنه يخدم النص بصورة أو بأخرى، وبدرجات متفاوتة .

إن مصطلح الانزياح هو مصطلح أسلوبي حديث النشأة غير أن مفهومه قديم ، يرتد في أصوله إلى أرسطو وما تلاه من بلاغة ونقد، فقد ميز أرسطو بين اللغة المألوفة واللغة

غير المألوفة ، وهي التي تتجه نحو الإغراب وتتفادى العبارات الشائعة وهي اللغة الأدبية ، أما ما تلاه من البلاغة فنجد إيفانكوس Vasconcelos ينبه إلى قيامها على الانحراف ، فإذا كانت القواعد هي فن الاستخدام السليم للغة فإن البلاغة هي فن تجميل الكلام .

وأشار تودوروف Todorov إلى أن ظاهرة الانزياح قديمة وأرجعها إلى كوينتيليان Quintilianus الذي وجد في الصورة خرقا للقواعد اللسانية ، وهو ما عبر عنه جان كوهن Jean Cohen في حديثه عن الصور التي اعتبرت البلاغة منذ القديم « طرقا في الكلام بعيدة عن الطرق التي تعتبر طبيعية وعادية أي اعتبرت انزياحات لغوية ».

لقد حاول دارسو البلاغة والنقد الغوص في أعماق مفهوم الانزياح من الوجهة الألسنية، ما يجعل قواعده التأسيسية تتجاوز المنظور الأسلوبي الضيق لتتسع بجلاء على حقول التفكير الألسني ، فرصد الانزياح في النص الأدبي يكون بدراسة الأسلوب دراسة لغوية، لذلك يجب معرفة اللغة في مستويها: المستوى المثالي في الأداء العادي ، والمستوى الإبداعي الذي يعتمد خرق هذه المثالية وانتهاكها وفيه يكون الانزياح، ولا يمكن دراسة المستوى الثاني إلا بالفهم الجيد للمستوى الأول.

إن الخروج عن المستوى المثالي للغة يحدث انزياحا، وهو ما ذهب إليه تودوروف حين اعتبره " لحنا مبررا" ما كان يوجد لو أن اللغة الأدبية كانت تطبيقا كليا للأشكال النحوية الأولى، وقد حاول حصر مجال الانزياح محيلا إلى جون كوهين عندما قسم اللغة إلى ثلاث مستويات المستوى النحوي، والمستوى اللانحوي، وفيه يكون الانزياح، والمستوى المرفوض، ولا يبتعد ريفاتير عما ذهب إليه كل من تودوروف وكوهين فالانزياح عنده يكون بالخروج عن النمط التعبيري المتواضع عليه وخرق القواعد .

أقر كثير من الدارسين بقدوم مفهوم الانزياح ، غير أن المصطلح حديث يرتبط بالدراسات الأسلوبية، وذهب كل من عبد السلام المسدي وأحمد محمد ويس ، إلى أن فاليري هو من وضعه وذلك في معرض مقارنته بين الشعر والنثر، فهو انحراف عن التعبير المباشر، وإذا

استخدم ينشأ منه الشعر من حيث تأثيره الفني، وقد تبنى جون كوهين فكرته حين جعل الانزياح مرتبطاً بالشعر . ويعد ليو سبيتزر أكثر من عمق فكرة الانزياح في الدراسات الأسلوبية ، «إذ يتخذ منه مقياساً لتحديد الخاصية الأسلوبية عموماً، ومسباراً لتقدير كثافة عمقها، ودرجة نجاعتها، ثم يتدرج في منهج استقرائي يصل به إلى المطابقة بين جملة هذه المعايير، وما يسميه بالعبقرية الخلاقة لدى الأديب» .

وحتى يكون الانزياح شعرياً، ينبغي تأويله فهو ليس مطلباً في ذاته ، بل هو سبيل لانفتاح النص وتعدديته ، وما خرق قوانين اللغة إلا مرحلة أولى لا بد أن تتبعها مرحلة ثانية هي مرحلة التأويل، وهو ما يحقق الوظيفة التواصلية للغة وهذه هي أسس نظرية الانزياح التي صاغها جان كوهين، ما جعل محمد العمري يقر بأنها أكمل صياغة لنظرية الانزياح.

## 2- الانزياح وتعدد المصطلح:

مفهوم الانزياح مفهوم تجاذبته مصطلحات كثيرة، وهي ليست طارئة في الكتب العربية فحسب، بل إنها غربية المنشأ أصلاً ، وقد ذكر عبد السلام المسدي أبرزها مع ذكر أصحابها واصلها الفرنسي.

L'ecart	فاليري Valéry	الانزياح
L'abus	فاليري	التجاوز
La déviation	سبيتزر Spitzer	الانحراف
La distorsion	والاك فاران Wellek et Warren	الاختلال
La subversion	بايترر Peytard	الإطاحة
L'infraction	تيري Thiry	المخالفة
Le scandale	بارت Barthes	الشناعة
Le viol	كوهين Cohen	الانتهاك

La violation des normes	تودوروف Todorov	خرق السنن
L'incorrection	تودوروف	اللعن
La transgression	آراقون Aragon	العصيان
L'altération	جماعة مو « mu » Le group	التحريف

كما أضاف صلاح فضل بعض المصطلحات مثل مصطلح الكسر الذي نسبه إلى تيري، ومصطلح الفضيحة ونسبه إلى بارت، كما نسب مصطلح الشذوذ إلى تودوروف، غير أنه يستعمل مصطلح الانحراف في أغلب مؤلفاته .

وقد حاول محمد ويس جمع المصطلحات الذاتية على مفهوم انزياح فوجدها تتجاوز الأربعين مصطلحا، فبالإضافة إلى ما سبق ذكره من مصطلحات يذكر: الجسارة اللغوية والغرابة والابتكار ويذكر الانكسار والإزاحة والانزلاق... وغيرها، ويشير إلى أن الكثير منها يفتقر إلى اللياقة -كالفضيحة، والشذوذ- كما أنها لم تلق شيوعا في كتابات الباحثين العرب، ولعل أكثرها استعمالا بالإضافة إلى الانزياح الانحراف والعدول.

### 3- أنواع الانزياح:

صنفت الانزياحات تصنيفات عديدة ، أهمها تصنيفها حسب تأثيرها في الوحدات اللغوية وفق مبدأ الاختيار والتركيب إلى انزياحات استبدالية وانزياحات تركيبية وهو التصنيف الشائع :

#### أ- الإنزياح الاستبدالي:

وهو الخروج على قواعد الاختيار للرموز اللغوية، وتعد الاستعارة عماد هذا النوع من الإنزياح وقد أورد له جون كوهين هذا المثال من شعر فاليري:

هذا السطح الهادئ الذي تمشي فيه الحمام.

فالمقصود بالسطح هو البحر، وبالحمائم هو السفن، ولو ذُكرا بلفظيهما لما كانت في البيت شاعرية . استأثرت الاستعارة اهتمام الدارسين حتى غطى ذلك على التشبيه فهو وإن كان متضمنا في الاستعارة في البلاغة القديمة، فإن البلاغة الجديدة نظرت إليه على أنه استعارة منقوصة، فكان ملازميه يفخر بأنه حذف حرف التشبيه من أسلوبه كله، أما تودوروف فقد أبعد التشبيه الصريح عن لغة الشعر .

**ب- الانزياح التركيبي:** هو الانزياح الذي يتصل بالسياق الخطبي للإشارات اللغوية عندما تخرج على قواعد النظم والتركيب ، ما يكسب العبارة الأدبية قيمة فنية، ومن أمثله التقديم والتأخير والحذف والإضافة.

يسمى جون كوهين هذا النوع من الانزياح " بالانزياح النحوي" ، ويسمى القائم منه على التقديم والتأخير بالقلب، ويمثل له بسطر شعري.

### **تحت جسر ميرابو يتدفق السنين**

ويبين أن الدلالة لم تكن نفسها ولا الشاعرية لو كانت الكلمات مرتبة على نحو عادي: يتدفق السنين تحت جسر ميرابو ، وتجدر الإشارة إلى أن دراسة الانزياح الاستبدالي تستدعي في كثير من الأحيان دراسة الانزياح التركيبي إذ يفضي الأول إلى الثاني غالبًا، فلو تم اختيار المفرد بدل الجمع مثلا فسيحدث انزياح استبدالي يترتب عليه انزياح تركيبى حتما .

خلاصة يمكن القول إن الدراسات الأسلوبية اهتمت بالانزياح باعتباره ظاهرة أساسية في تشكيل جماليات النصوص الأدبية، وقد تعددت المصطلحات الدالة عليه وهو ما يؤكد أهميته، وقد تم تقسيمه إلى عدة أنواع حسب تصنيفات عديدة أهمها تلك التي اعتمدت مبدأ الاختيار والتركيب، فكان الانزياح الاستبدالي والانزياح التركيبي من أبرزها.

### **ثانيا : المفارقة**

#### **1- مفهوم المفارقة :**

المفارقة لغة هي مصدر الفعل فَارَقَ ، فَارَقَ الشيءَ مُفَارَقَةً وفِرَاقًا أي باينه، و فَارَقَ فلان امراته مُفَارَقَةً وفِرَاقًا أي باينها ، أما اصطلاحا فهو مصطلح ذو أصل يوناني Paradox ، يتألف من مقطعين Para تعني المخالفة والضد، وDoxa وتعني الرأي ، أي ما يخالف الرأي الشائع .

ويرى ميويك Muecke أن المفارقة ليست ظاهرة بسيطة ، وهي عنده « قول شيء بطريقة لا تستثير تفسيراً واحداً ، بل سلسلة لا تنتهي من التفسيرات المغايرة » .

وقد وضع معجم إكسفورد Oxford مجموعة من التصورات للمفارقة لا تخرج في مجملها عن كونها قول الشيء وإرادة نقيضه « إمّا أن يعبر المرء عن معناه بلغة توجي بما يناقض هذا المعنى أو يخالفه ولاسيما أن يتظاهر المرء بتبني وجهة نظر الآخر، إذ يستخدم لهجة تدل على المدح ولكن يقصد السخرية أو التهكم ، وإما هي حدث أو ظرف مرغوب فيه ، ولكن في وقت غير مناسب البتّة، كما لو كان في حدوثه في ذلك الوقت سخريّة من فكرة ملاءمة الأشياء ، وإما هي استعمال اللغة بطريقة تحمل معنى باطنا موجها لجمهور خاص مميز، ومعنى آخر ظاهراً موجها للأشخاص المخاطبين أو المعنيين بالقول » .

فالمفارقة اللغوية تستدعي وجود معنيين معنى ظاهر ومعنى خفي ، وهو ما ذهبت إليه نبيلة إبراهيم ، تقول : « إنها لعبة لغوية ماهرة وذكية بين طرفين : صانع المفارقة وقارئها على نحو يقدم فيه صانع المفارقة النص بطريقة تستثير القارئ وتدعوه إلى رفض معناه الحرفي ، وذلك لصالح المعنى الخفي الذي غالبا ما يكون المعنى الضد، وهو في أثناء ذلك يجعل اللغة يرتطم بعضها ببعض ، بحيث لا يهدأ للقارئ بال إلا بعد أن يصل إلى المعنى الذي يرتضيه ليستقر عنده».

المفارقة انحراف عن المعنى الظاهر إلى معنى باطن ، وهو ما جعل عبد السلام المسدي يؤكد على علاقتها مع الانزياح ، يقول : « ربط مفهوم الأسلوب بمجموع المفارقات

التي نلاحظها بين نظام التركيب اللغوي للخطاب الأدبي وغيره من الأنظمة وهي مفارقات تنطوي على انحرافات ومجازفات ، بها يحصل الانطباع الجمالي».

وهو ما يؤكد ناصر شبانة في تعريفها « المفارقة انحراف لغوي يؤدي بالبنية إلى أن تكون مراوغة وغير مستقرة ومتعددة الدلالات ، وهي بهذا المعنى تمنح القارئ صلاحيات أوسع للتصرف وفق وعيه بحجم المفارقة ».

إن وضع تعريف شامل للمفارقة أمر صعب خاصة أنها تشمل مجالات واسعة ، وقد مرت بمراحل عديدة ، وهو ما عبّر عنه ميويك بقوله : « لو اكتشف امرؤ في نفسه دافعاً لإيقاع امرئ آخر في اضطراب فكري ولغوي ، فلن يجد خيراً من أن يطلب إليه أن يدوّن في الحال تعريفاً للمفارقة ».

وإذا بحثنا عن المفارقة في التراث العربي فإننا لا نعثر لها على مصطلح ، غير أن هذا لا يعني عدم وجودها مفهوماً ، فهناك من الفنون البلاغية ما يقترب من المفارقة حدّ المطابقة مثل :

**التهكم:** هو الإتيان باللفظ في غير موضعه كالممدح في معرض الذم أو الاستهزاء مثل قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ ( سورة الدخان ، الآية : 49 )

**تجاهل العارف:** هو إخراج ما يعرف صحته مخرج ما يشك فيه ليزيد بذلك تأكيداً، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ ( سورة طه ، الآية : 17 )

وغيرها من الفنون البلاغية التي تقترب من المفارقة .

### 3- عناصر المفارقة ودورها :

كل عمل أدبي لابد أن يتوفر على عناصر حتى يحقق تواصلًا، وهي المرسل والمتلقي والرسالة ، هذه العناصر يمكن ترجمتها في بنية المفارقة إلى :

- المرسل : صانع المفارقة .

- المتلقي : متلقٍ واعٍ يعيد إنتاج الرسالة .

- الرسالة : بنية المفارقة وتخضع لإعادة التفسير .

غير أن المفارقة لا بد لها من عناصر أخرى حتى تحدث انحرافاً وهي:

- وحدة البناء وتعدد الدلالة : وهي بنية لغوية تشع بدلالات متعددة أقلها دلالتان

تكونان متضادتين غالباً.

- القرينة أو المفتاح : لا بد لصانع المفارقة أن يقدم للمتلقي قرينة أو قرائن تساعد على

اكتشاف المعنى الخفي ، وهي في الغالب قرائن سياقية .

- ضحية المفارقة : فمقابل المتلقي الواعي شديد الفطنة هناك متلق لا يفلح في

فك الشفرة ، فيقع ضحية لها .

فالمفارقة مراوغة لغوية يخفي صانعها وراءها معنى نقيضاً لما يريد ، وهدفه بلوغ أقصى درجات الوضوح ، وحين يكتشف المتلقي هذا المعنى فإنه يتحول إلى صانع للمفارقة ، لذلك فإن الدافع الفني والجمالي هو الذي يمارس الدور الأكبر في صنع المفارقة ، فكل ممنوع عند القارئ مرغوب ، والأبعد هو الأجل ، والغامض هو الذي يسعى القارئ لاكتشافه .

وبهذا عدت المفارقة من أبرز الظواهر الأسلوبية ، لأنها تحدث أثراً فنياً كبيراً في النصوص الأدبية من خلال انحرافها عن المعنى الحقيقي إلى معنى خفي يكون في الغالب نقيضاً له بغية إيضاحه أحياناً أو السخرية أو إخفاء موقف ما والتعبير عنه بطريقة غير مباشرة ... ، لذلك فهي تحتاج إلى صانع ذكي يخفي المعنى بطريقة فنية في بنية المفارقة ليعيد المتلقي الواعي تفسيرها وإنتاجها.